تفسير

القرآن في عهد النبوة

بقلم

د. سعود بن عبدالله الفنيسان

الباحث في كلمات

الاســــــم : سعود بن عبدالله الفنيسان

تاريخ ومكان الميلاد : ١٣٦٣هـ ـ الزلفـى .

المؤهلات العلمية : تخــرج في كلية الشريعة حيث حصل على شهــادة «الليســانس» ١٣٨٨/٨٧هـ .
حصل على درجة الماجستير من قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بالرياض عام ١٣٩٩هـ .
حصل على درجة الدكتوراه من القسم نفسه عام ١٤٠٢هـ .

العمــل الحــالى : أستاذ مشارك بقسم القرآن وعلومه . وعميد كلية الشريعة .

أهم البحوث والمؤلفات : * غزوة الأحزاب في ضوء القرآن ـ دراسة وتحليل ـ مخطوط .
* اختلاف المفسرين ـ أسبابه وآثاره ـ مخطوط .
* تحقيق كتاب «البرهان في بيان القرآن لابن قدامة» مخطوط .

تقـــديم :

الحمـد لله رب العـالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـــد:

فهذا بحث مختصر عن (تفسير القرآن في عهد النبوة) بينت فيه متى بدأ، وعلى أى نحـو كان، وهـل فسر النبي - صلى الله عليه وسلم لصحابته القرآن كاملا أو لا؟ وناقشت أدلة كل فريق، وبينت الصواب في ذلك.

فإن وفقت فمن الله، وان أخطأت فمن نفسي والشيطان.
وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

نشأة تفسير القرآن

بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهدى ودين الحق، وأعطاه القرآن ـ معجزته الخالدة ـ وكلفه تبليغ هذه الرسالة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ... ﴾(١).

فأداها وبلغها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بكل وسيلة استطاعها من وسائل البلاغ، والبيان؛ فوصلت إلينا طرية نقية، ويانعة شهية.

ولعله من البدهي أن يقال: ان وظيفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليست مقصورة على مجرد تبليغ الناس ما أنزل عليه من ربه فحسب، ولكنه كلف مع التبليغ بالبيان؛ إذ كل مبين لابد له من بيان.

يدل لهذا، قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ... ﴾(٢).

وقوله تعالى:

﴿... وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ... ﴾(٣).

وقوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدًى

(١) الآية ٦٧: من سورة المائدة.

(٢) الآية ١٠٥: من سورة النساء.

(٣) الآية ٤٤: من سورة النحل.

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وجوب البيان للمبين.

أما تلك الآيات الكثيرة التى تحصر وظيفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في البلاغ والإنذار، وما إليهما؛ فإن الحصر فيها إضافي أريد به تذكيره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأنه لا يهدى من أحب، وليس من وظيفته حمل الناس على الإيمان قهرا.

ومن هنا جاء الأمر في القرآن الكريم باتباع الرسول في كل ما يبلغ به عن ربه، وكل ما يبين به القرآن الكريم من سنته قولا كانت أو فعلا أو تقريرا.

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أول مبين ومفسر للقرآن، ولم يكن بيان القرآن قد عرف بعد باسم التفسير.

وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تناقل الصحابة ما بين به آيات من القرآن سئل عنها، أو رأى أن يبين لهم المراد منها[2].

وإذا كان الله قد وضع رسوله موضع البيان والتفسير لكتابه عند خلقه؛ فإنه قد أبان في كتابه أصلا تعتمد عليه سائر تصرفات نبيه الكريم. يقول سبحانه:

﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ... ﴾[3].

ويقول جل شأنه:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[4].

---

(١) الآية ٦٤: من سورة النحل.

(٢) انظر: مقدمة كتاب «دراسات في التفسير» للدكتور/ مصطفى زيد.

(٣) الآية ٧: من سورة الحشر.

(٤) الآية ٣، ٤: من سورة النجم.

فكانت سنته القولية والفعلية والتقريرية شرحا وبيانا لمعاني القرآن. وبهذا كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول شارح ومفسر للقرآن. يقول الإمام الشاطبي[1]: «كان يبين بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما قال في حديث الطلاق (فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء) »[2].

وقال لعائشة حين سألته عن قول الله تعالى:

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (إنما ذلك العرض) »[3].

وكان ـ أيضا ـ يبين بفعله للمرأة التى قبلها زوجها وهو صائم: «ألا أخبرتيها أني أفعل ذلك»[4].

وقال الله تعالى:

﴿ ... زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ ... الآية ﴾[5].

وبين لهم كيفية الصلاة والحج بفعله، وقال عند ذلك: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[6]. و «خذوا عني مناسككم»[7]. إلى غير ذلك. وكان اقراره بيانا ـ أيضا ـ إذا علم بالفعل ولم ينكر[8]. لأن الله لا يقر رسوله على خطأ، وبقى على هذا النهج من التفسير إلى أن توفاه الله.

---

(١) هو: أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي، لغوى فقيه، أصولي مفسر. له تصانيف كثيرة، منها: الموافقات، والاعتصام، درس على أبي القاسم البستي، وأبي عبدالله التلمساني، وأبي عبدالله المقرى، وأبي عبدالله البستي، وغيرهم كثير. توفي سنة ٧٩٠هـ. انظر: الأعلام (١/٧٥) ومعجم المؤلفين (١/١١٨).

(٢) انظر: صحيح البخارى بشرح فتح البارى (٩/٣٤٥).

(٣) المصدر السابق (٨/٦٩٧).

(٤) رواه الإمام مالك في الموطأ (١/٢٩١).

(٥) الآية ٣٧: من سورة الأحزاب.

(٦) انظر: صحيح البخارى بشرح فتح البارى (٢/١٧٢).

(٧) رواه مسلم في سياق حجة النبي. انظر شرح النووي ٩/٤٤.

(٨) انظر: الموافقات للشاطبي (٣/٣٠٨- ٣٠٩).

فهم الصحابة للنص القرآني ومدى اختلافهم في تفسيره

لقد خلق الله الإنسان وفضله على سائر المخلوقات:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

وما هذا الإكرام والتفضيل للجنس البشرى إلا لما أودع الله فيه من الخصائص والمقومات ليقوم بخلافة الله في الأرض. وفي مقدمة هذه الخصائص خاصية العقل والإدراك التى يميز بها الإنسان النافع من الضار، والغث من السمين ـ على اختلاف بين بني الإنسان بعضهم لبعض في قوة هذه الخاصية وضعفها أو فقدانها.

وما نجده بين الناس قديما وحديثا من اختلاف في الفهم والتعبير إلا نتيجة تفاوتهم في المدارك والاستعدادات والقوى العقلية.

ولقد امتاز العرب الذين نزل القرآن بلغتهم بصفاء القريحة، وحدة الذهن، والقدرة على الاستيعاب، ولا أدل على ذلك من أنهم كانوا يعتمدون على أذهانهم في حفظ علومهم وأشعارهم وأخبارهم ومفاخرهم.

وكان صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الجملة من أولئك العرب امتازوا بصفاء الذهن، وحدته؛ غيرأنهم لم يكونوا في درجة واحدة في الحفظ والاستيعاب لمعاني القرآن ومفرداته، فكان يحفظ أحدهم مالا يحفظه الآخر، ويحضر هذا ما غاب عن ذاك، فكان كل هذا له أثره في فهمهم للقرآن حسب دلالة اللغة، واستعمالات العرب للكلمة الواحدة. يؤكد هذا ما أخرجه أبو عبيد[2] في الفضائل عن

(١) الآية ٧٠: من سورة الإسراء.

(٢) هو: أبو عبيد القاسم بن سلام الإمام العالم المحدث الفقيه، صاحب كتاب الأموال. ولد سنة (١٣٠هـ). له مؤلفات كثيرة في القرآن والحديث والفقه، قيل إنه أول من ألف في غريب الحديث، أخرج له أبو داود في سننه. ثقة ثبت، وصفه الإمام أحمد بالأستاذ. توفى سنة ٢٢٤هـ.
انظر: تهذيب التهذيب (٧/٣١٥)، وتاريخ بغداد (١٢/١٤٠٣هـ).

أنس[1] بن مالـك: أن عمـر[2] بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأبا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: ان هذا لهو التكلف يا عمر»[3].

ويقول ابن[4] عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: «كنت لا أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطـرتها، يقول أنا ابتدأتها»[5]. وقال ـ أيضا ـ في موضع آخر: «ما كنت أدرى ما قوله تعالى:

﴿... رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ...﴾.

حتى سمعت قول بنت ذي يزن تقول: تعال أفاتحك. تريد أخاصمك»[6].

فابن عباس ـ رضى الله عنه ـ لم يفهم معنى آية ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ وآية ﴿... رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ...﴾ حتى سمع استعمال العرب لهما.

وبهذا يتبين مدى حرص الصحابة، وحسن فهمهم للنص القرآني باللغة التى أنزل

(١) هو: الصحـابي أنس بن مالك بن النضر. ولد قبل الهجرة بعشرين سنة، وهو كثير الرواية لأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد بلغت مروياته (٢٢٨٦) حديثا. توفي سنة ٩٣هـ وعمره (١٣٠) سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٠٦)،ت وأسد الغابة (١/١٥١).

(٢) هو: الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح. لقبه رسول الله بالفاروق. وتولى الخلافة بعد أبي بكر الصديق. قتله أبو لؤلؤه المجوسى غلام المغيرة سنة ٢٣هـ وعمره (٦٣) سنة. أفرد له المحب الطبرى مجلدا خاصا لترجمته في كتابه «الرياض النضرة في مناقب العشرة».

(٣) الإتقان للسيوطى (١/١١٣).

(٤) هو: الصحابي أبو العباس عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، ابن عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين. لقبه ابن مسعود بحبر الأمة وترجمان القرآن. دعا له الرسول بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». روى عنه قوله «مذاكرة ساعة خير من إحياء ليلة. ذهب بصره في آخر حياته. توفى سنة ٦٨هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/٤٠)، وشذرات الذهب (١/٧٥).

(٥) انظر: الإتقان (١/١١٣).

(٦) الإتقان: (١/١١٣).

فيها؛ لاسيما وهم أقدر على فهم النص من غيرهم؛ لكونهم أقرب عهدا بالتنزيل، وأرهف حسا، وأسلم ذوقا، فكان تفسيرهم لآيات القرآن هو المعتبر، وعليه المعول.

يقول صاحب الموافقات: «وأما بيان الصحابة، فإن أجمعوا على ما بينوه فلا اشكال في صحته، وان لم يجمعوا فالراجح الاعتماد عليهم في البيان؛ وذلك من وجهين:

الأول: معرفتهم باللسان العربي، فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو فعل واقع موقع البيان؛ صح اعتماده من هذه الجهة.

الثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد في فهم القرائن الحالية وأعرف بأسباب النزول، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى مالا يرى الغائب[1].

وما ذكره الشاطبي من إجماع الصحابة على مسألة، أو اختلافهم فيها إنما يكون في الغالب في تفصيل الأحكام من القرآن أو السنة. أما تفسير القرآن ببيان المراد منه إجمالا: فقليلا ما يقع بينهم فيه تفاوت في فهمه، إذ «الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير.

وغالب ما يصح عنهم من الخلاف، يرجع إلى اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل والذهول عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون للغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقاد معارض لذلك...»[2].

* * * *

(١) الموافقات (٣/٣٣٨).

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٣٨، ٥٥).

مصادر التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

بالتتبع والاستقراء لمصادر التفسير للقرآن الكريم في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - نجدها ترجع إلى ثلاثة مصادر أساسية، هي :

١ - تفسير القرآن بالقرآن.
٢ - تفسير القرآن بالسنة.
٣ - الاجتهاد والاستنباط.

أولا : تفسير القرآن بالقرآن :

القرآن هو المصدر الأول من مصادر التشريع عند المسلمين في كل زمان ومكان؛ إذ فيه أخبار الأمس، وأحوال اليوم، ووقائع الغد، كما يشتمل على آيات مجملة، وأخرى مفصلة، وعلى تخصيص وتعميم، وإطلاق وتقييد، وهي في الوقت نفسه تمثل وحدة موضوعية مترابطة مع غيرها، ومجموعها يفسر بعضها بعضا. وبهذا كان تفسير القرآن بالقرآن أشرف أنواع التفسير وأجلها؛ إذ لا أحد أعلم بمراد الله بكلامه منه - سبحانه وتعالى -. وبهذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفسر القرآن بعضه ببعض، وتبعه صحابته على منواله.

فمن تفسير القرآن بعضه ببعض : أن يحمل المجمل على المبين، فيكتسب المجمل البيان، وذلك كقوله تعالى :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[١].

فقد فسر هذه الكلمات قوله تعالى في موضع آخر:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[٢].

---

(١) الآية ٣٧ : من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٣ : من سورة الأعراف.

ومن ذلك : حمل المطلق على المقيد، ففي كفارة الظهار جاء ذكر الرقبة مطلقة، وفي كفارة القتل قيدت بالإيمان، فيحمل المطلق على المقيد، فيشترط في كفارة الظهار أن تكون مؤمنة كما في كفارة القتل.

ومن ذلك أيضا : الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف ـ وليس كذلك ـ كخلق آدم من تراب، كقوله:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ... الآية ﴾[1].

ومن طين كقوله:

﴿ ... إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[2].

من حمإ مسنون كقوله:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[3].

فيحمل بعضها على بعض، بأن هذا ذكر للأطوار التي مر بها آدم ـ عليه السلام ـ من مبدأ الخلق إلى نفخ الروح فيه.

ومن ذلك : أن يذكر شيء في موضع، ثم يقع عنه سؤال وجواب في موضع آخر، كقوله تعالى:

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[4].

فإنه بينها السؤال والجواب في قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾[5].

---

(١) الآية ٥٩ : من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٧١ : من سورة (ص).

(٣) الآية ٢٦ : من سورة الحجر.

(٤) الآية ٤ : من سورة الفاتحة.

(٥) الآية ١٧، ١٨، ١٩ : من سورة الانفطار.

ومن أنواع بيان القرآن بعضه ببعض : أن يذكر في موضع أن شيئا سيقع، ثم يبين وقوعه بالفعل، كقوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا... الآية ﴾ [١].

فقد صرحت آية أخرى بما قالوا، وهى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ... ﴾ [٢].

إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة. ومرحلة بيان القرآن بالقرآن لا يجوز لأحد أن يعرض عنها، أو يتخطاها إلى غيرها، وفي امكانه أن يسلكها.

ثانيا : تفسير القرآن بالسنة :

السنة هى المصدر الثاني لتفسير نص القرآن الكريم، هى سنته القولية والفعلية؛ إذ هي وحي ثانٍ بشهادة القرآن:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [٣].

ويقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله»[٤].

يقول الإمام الشافعي[٥]: «سنة النبي مع القرآن على وجوه، منها: ما أبانه لخلقه

(١) الآية ١٤٨: من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٣٥: من سورة النحل.

(٣) الآية ٣، ٤: من سورة النحل.

(٤) أخرجه الدارمي في سننه (١/١٢٤). وابن ماجه ١/٩ وأحمد في مسند ٢/٢٦٧ و ٤/٢٢١ و ٦/٨ وأبو داود انظر عون المعبود ١٢/٣٥٤ والترمذي ٥/٣٣.

(٥) هو الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي القرشي، إليه تنسب الشافعية. ولد في فلسطين سنة

نصا مثل جمل فرائضه على عباده في أن عليهم صلاة، وزكاة، وحجا وصوما، وأنه حرم الفـواحش ما ظهر منها وما بطن، وحرم الزنا والخمر، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وبين لهم كيف فرض الوضوء، إلى غير ذلك مما بين نصا.

ومنه ما أحكم فرضه بكتابه، وبين كيف هو على لسان نبيه، مثل عدد الصلوات والزكاة ووقتها، وغير ذلك من فرائضه التي أنزل الله في كتابه.

ومنه ما سن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما ليس لله فيه نص حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله، والإنتهاء إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله، فبفرض الله قبل»[1].

وعند الرجوع إلى كتب السنة المدونة اليوم، نجد في كل منها بابا للتفسير، دون فيه ما فسره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نصوص في القرآن العزيز.

فمن ذلك : ما أخرجه الإمام مسلم[2] عن أبي هريرة[3] ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: « (قيل لبني إسرائيل ادخلوا البـاب سجدا وقولوا حطة . . .) فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أساتهم وقالوا حبة في شعره»[4].

١٥٠هـ، يعتبر حجة في اللغة. له كتب كثيرة في فنون شتى في أصول الفقه (الرسالة)، وفي الفقه (الأم)، وفي علوم القرآن (أحكام القرآن). وله مسند في الحديث. توفى سنة ٢٠٤هـ، وله من العمر (٥٧) سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٥)، وطبقات الشافعية (١/١٨٥).

(١) انظر: الرسالة ـ تحقيق: شاكر (ص ٢١، ٢٢).

(٢) هو: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى الحافظ الثقة، صاحب الصحيح، وتهذيب الأسماء واللغات. ولد سنة ٢٠٤هـ ـ وتوفى سنة ٢٦١هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٨٨)، وشذرات الذهب (٢/ ١٤٤).

(٣) هو: أبو هريرة الدوسي اليماني الصحابي، الفقيه، اختلف في اسمه واسم أبيه والأشهر أنه عبدالرحمن بن صخر. وأكثر الصحابة رواية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد بلغت (٥٣٧٤) حديثا. أسلم عام خيبر وولاه عمر على البحرين. توفي سنة ٥٧هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/٣٢)، وشذرات الذهب (١/٦٣).

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم انظر: النووى على مسلم (١٨/١٥٢).

وعن طارق بن شهاب: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال له: يا أمير المؤمنين: آية في كتاب الله تقرؤها لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. وقال أي آية؟ قال:

﴿ ... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ... الآية ﴾ .

فقال عمر: اني لأعلم حيث أنزلت، وأى يوم أنزلت، وأين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أنزلت؟. أنزلت بعرفة ورسول الله واقف بعرفة[1].

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إذا قال الإمام (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا: آمين. فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[2].

وعن جرير[3] بن عبدالله قال: كنا جلوسا ليلة مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظر في القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «انكم سترون ربكم كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ:

﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾[4]»[5].

وعن أنس بن مالك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ .

---

(١) المصدر السابق (١٨/ ١٥٤).

(٢) انظر: صحيح البخارى بشرح فتح البارى (٨/ ١٥٩).

(٣) هو: الصحابي جرير بن عبدالله البجلي، سيد قومه، أسلم قبل السنة العاشرة، وكان وسيما وضاح الوجه، قيل فيه: أنه يوسف هذه الأمة لجماله.
روى قرابة (١٠٠) حديث. أخرج البخارى ومسلم منها (١٦) حديثا. توفي سنة ٥١هـ.
انظر: الاصابة (١/ ٢٣٢)، وشذرات الذهب (١/ ٥٨).

(٤) الآيتان ٣٩، ٤٠ من سورة (ق).

(٥) متفق عليه انظر: اللؤلؤ والمرجان ١/ ١٢٤.

أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «هو نهر في الجنة حافتاه من اللؤلؤ. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله»[1]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ في قول تعالى:

﴿... وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ...﴾.

قال: جاء رجل إلى رسول الله فقال: أرأيت قوله:

﴿... وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ ...﴾.

قال: فأين النار؟ قال أرأيت الليل؟ فالتمس كل شيء فأين النهار؟ قال: حيث شاء الله. قال: فكذلك النار حيث شاء الله»[2].

إن ما فسره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن إنما هو فيما يتعلق بآيات الأحكام، وما يتصل بالتكليف دون غيره مما لا يقع موقع التفسير، وليس فيه معنى تكليفي اعتقادى أو عملي. وحديث أبي هريرة هذا دليل لما نقول.

ثالثا: الاجتهاد والاستنباط:

كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجتهد في فهم الآية من القرآن، ما لم ينزل عليه في القضية وحي، فإذا نزل عليه فيها شيء تبع الوحي وترك الاجتهاد، وعلى هذا أمثلة كثيرة:

منها: أنه عندما توفي رأس المنافقين عبدالله[3] بن أبي بن سلول، كفنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثوبه، وهم أن يصلى عليه، فقال له عمر بن الخطاب: أتصلي عليه

(١) أخرجه البخارى في صحيحه انظر الفتح ٧٣١/٨ أنظر: جامع الترمذي (٥/ ٤٤٩).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٧).

(٣) هو: رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن مالك الخزرجي المشهور بابن سلول نسبة إلى جدته، كان زعيما للخزرج =

يا رسول الله وقد نهاك ربك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما خيرني ربي، فقال:

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ... ﴾ (1).

وسأستغفر له مالم أنه عنه، فنزل قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ... ﴾ (2).

فترك الصلاة على المنافقين.

ويظهر من هذه الواقعة: أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم من ظاهر النص الأول تخييرا له بين طريقين هما: الدعاء والاستغفار للمنافقين زيادة على العدد المبين في الآية، أو ترك ذلك بالكلية فسلك أقربها إلى الكرم والرحمة اللتين اتصف بهما، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد أن جاءه النص بالمنع فامتنع.

ومنها: أن الله أباح الأكل من صيد الكلب المعلم بقوله تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ... الآية ﴾ (3).

فقيد التعليم يفيد أن صيد غير المعلم حرام، إذ هو لم يمسك لك، وإنما أمسك لنفسه، وهناك نوع ثالث لم تتعرض له الآية وهو: الكلب المعلم إذا أكل من صيده فدار هذا بين الطرفين الحل والحرمة الذين بينتهما الآية، فاجتهد النبي ـ صلى الله عليه

= في الجاهلية. توفي سنة تسع. وأراد الرسول أن يصلي عليه فنزل قوله تعالى:
﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.
انظر: تاريخ الخميس (٢/ ١٤٠)، وشذرات الذهب (١/ ١٣).

(1) الآية ٨٠: من سورة التوبة.

(2) الآية ٨٤: من سورة التوبة.

(3) الآية ٤: من سورة المائدة.

وسلم ـ وألحقه بالحرمة، انظره يقول: «فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسكه على نفسه»[1]. فقوله صلى الله عليه وسلم (أخاف) قرينة ظاهرة على الإجتهاد في هذه القضية، وإنه قال بها برأيه، لا بنص من الله.

ومنها: قوله تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ... الآية ﴾[2].

وقال في الميتة:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ... الآية ﴾[3].

فبقيت ميتة البحر بين الطرفين مشكلا أمرها، فبين ذلك النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ملحقا لها بأحد الطرفين في قوله:

﴿هو الطهور ماؤه الحل ميتته﴾[4].

وقرينة هذا الاجتهاد: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسأل عن ميتة البحر، وإنما سئل عن الوضوء من ماء البحر، ولكنه لما رأى ميتة البحر لم تدخل في ظاهر الأيتين السالفتين ألحقها بأحدهما؛ لا سيما وحالة السائل تحتاج إليه فأجابه وزاده.

أما أدلة اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السنة ـ أى: في غير آيات القرآن ـ فكثيرة:

منها: ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة من خثعم جاءت إلى النبي تسأله، فقالت: ان أمي ماتت وعليها صيام نذر، أفأصوم عنها؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أفكان ذلك يؤدى عنها؟ قالت:

---

(١) رواه الستة واللفظ للنسائي (٧/ ١٨٠)، والموافقات (٤/ ٣٥).

(٢) الآية ٩٦: من سورة المائدة.

(٣) الآية ٣: من سورة المائدة.

(٤) رواه أصحاب السنن واللفظ للترمذي وصححه انظر ١/ ١٠٠. وانظر: كتاب الالمام (ص٣).

نعم. قال: «فصومي عن أمك»[1]. وفي رواية: «فدين الله أحق بالقضاء». رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ومنها: قول النبي لعمر بن الخطاب وقد قبل أمرأته وهو صائم: «أرأيت لو تمضمضت؟ أي: أنه لا شيء في ذلك عليك، فقاس القبلة على المضمضة وأعطاها حكمها.

ومنها قصة تأبير النخل. فعن رافع بن[2] خديج ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قدم النبي المدينة وهم يأبرون النخل، فقال: «ما تصنعون؟». قالوا كنا نصنعه قال لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنفقت ـ أو فنقصت ـ قال فذكروا ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم من دينكم فخذوه، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»[3]. وفي بعض الروايات: «أنتم أعلم بأمور دنياكم. وهذا نص أنه ما قال ذلك إلا بإجتهاده.

ومنها: قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديث أم سلمة[4]: انكم لتختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[5]. رواه الستة. وفي رواية أبي[6] داود: «فمن قضيت له برأيي . . . الحديث».

---

(١) انظر: اللؤلؤ والمرجان (ص ٢٥٤).

(٢) هو: رافع بن خديج بن رافع بن عدى الأوسي، الصحابي الجليل، استصغر يوم بدر، وأصيب بسهم يوم أحد. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ان شئت نزعت السهم، وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد، فلما كان خلافة عثمان بن عفان، انتقض جرحه فمات. اختلف في سنة وفاته، والأشهر أنه مات في زمن معاوية. انظر: الإصابة (١/ ٤٩٥).

(٣) رواه مسلم (١٥/١١٦) بشرح النووى.

(٤) هي أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم المخزومية. إسمها هند، واسم أبيها حذيفة، وكان يلقب بزاد الراكب لكرمه وجوده، أسلمت قبل الهجرة وهاجرت إلى الحبشة، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة أربع من الهجرة. توفيت سنة ٦١هـ. وهي آخر أمهات المؤمنين موتا. انظر: الإصابة (٤/ ٤٥٩)، وشذرات الذهب (١/ ٦٩).

(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٤).

(٦) هو: سليمان بن الأشعث بن اسحاق السجستاني، العالم الحافظ الحجة، ولد سنة ٢٠٢هـ. صاحب السنن.

ومنها: قوله لبنت النضر بن الحارث واسمها «قتيلة» لما أنشدته قولها في أبيها وكان قد قتله بعد غزوة بدر، فلما سمع شعرها رق لها وقال: «أما وإني لو سمعت شعرها من قبل لعفوت عنه وما قتلته». وهذا يدل على أن الحكم كان باجتهاده، ولو كان قتله بأمر الله ـ سبحانه ـ ما أسف، ولا حدث نفسه بالتراجع[1]. أى أنها لو شفعت عندي بهذا الكلام لشفعتها فيه وعفوت عنه.

ومن شعرها[2]:

ياراكبا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
هل يسمعني النضر ان ناديته؟ ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد ياخير ضنء[3] كريمة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

روى عن سليمان بن حرب، وأحمد بن حنبل. وروى عنه: الترمذي والنسائي وأبو عوانة، وكتب عنه شيخه أحمد بن حنبل. وتوفى سنة ٢٧٥هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ (٢/٥٩١)، وتاريخ بغداد (٩/٥٥هـ).

(١) انظر: شرح الاسنوى على منهاج الأصول (٣/ ١٤٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٢).

(٣) أبي الأصل والولد.

هل فسر النبي القرآن الكريم كله؟

اختلف الناس في هذا على قولين:

فذهب ابن[1] تيمية وجماعة: إلى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين لأصحابه معاني القرآن جملة وتفصيلا.

وذهب جماعة من المتأخرين، ومنهم السيوطى[2] في الإتقان: إلى أن النبي لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل مما تدعو الحاجة إليه.

* أدلة ابن تيمية ومن معه :

استدل ابن تيمية بالنقل والعقل والواقع، فقال:

١ - يجب أن يعلم أن النبي بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى:

﴿ ... لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾.

يتناول هذا وهذا.

---

(١) هو: شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الدمشقي الحنبلي. ولد في حران سنة ٦٦١هـ، عالم عابد مجاهد بسيفه وقلمه، ألف في شتى الفنون، ونفع الله بعلومه الناس، اضطهد وسجن بسبب فتواه بعدم جواز شد الرحال إلى قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتوفي في السجن سنة ٧٢٨هـ. انظر: فوات الوفيات (١/ ٣٥)، وشذرات الذهب (٦/ ٨٠).

(٢) هو: جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيرى السيوطي الشافعي، صاحب المؤلفات الكثيرة في شتي الفنون، ولد سنة ٨٤٩هـ - يغلب على كتبه صفة الجمع أكثر من التمحيص والتدقيق. له مؤلفات كثيرة، أشهرها الدر المنثور في التفسير، وتدريب الراوى في الحديث، وجمع الجوامع في أصول الفقه، واللمع الهوامع في اللغة. توفي سنة ٩١١هـ.
انظر: شذرات الذهب (٨/ ٥١).

٢ - وقد قال أبو عبدالرحمن السلمي[(١)]: حدثنا الذين يقرؤوننا القرآن - كعثمان[(٢)] بن عفان، وعبدالله بن مسعود[(٣)]، وغيرهما - أنهم إذا تعلموا من النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر آيات، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا العلم والعمل جميعا. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة من القرآن، فقد بقي ابن[(٤)] عمر في حفظ (البقرة) ثماني سنين.

٣ - وقوله تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ... ﴾[(٥)].

وقال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[(٦)].

وقوله:

﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[(٧)].

---

(١) هو: أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب بن ربيعة (بضم الراء وتشديد الياء) السلمي، أحد أعيان التابعين، وممن اشتهر بالاقراء، ثقة ثبت. توفى بعد السبعين، وأخرج له الجماعة.
انظر: تقريب التهذيب (١/ ٤٠٩).

(٢) هو: الخليفة الثالث ذو النورين عثمان بن عفان. من أعظم مآثره: جمع القرآن، وجهز جيش العسرة. قتل رضى الله عنه - شهيدا، والمصحف بين يديه سنة (٣٥) من الهجرة، وعمره بضع وثمانون سنة، ومدة خلافته (١٢) سنة وعدة أيام، وبمقتله فتح على المسلمين باب شر وفتنة.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/٨)، وشذرات الذهب (١/٤٠).

(٣) هو: أبو عبدالرحمن عبدالله بن مسعود، الصحابي الجليل، أسلم قبل عمر بن الخطاب، يكنى بابن أم عبد، اشتهر بالقراءة وحسن الصوت، وكان يزجر تلاميذه عن التهاون في ضبط الرواية. توفي سنة ٣٢هـ وعمره (٦٠) سنة.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/١٣).

(٤) هو: أبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أول مشاهده الخندق. أحد أوعية الحديث وحفاظه. له مواقف مع الحجاج بن يوسف. توفي سنة ٧٤هـ وعمره (٦٣) سنة.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٣٧)، والاصابة (٣/٣٤٧).

(٥) الآية ٢٩: من سورة (ص). (٦) الآية ٢٤: من سورة محمد. (٧) الآية ٦٨: من سورة المؤمنون.

وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن. وكذلك قول الله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

وعقل الكلام متضمن لفهم معناه.

٤ - وأيضا فإن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم، كالطب والحساب ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله تعالى؟! الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم.

٥ - ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا، وهو وان كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وكلما كان العصر أشرف، كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر»[2].

٦ - ومـا رواه الامام[3] أحمد عن عمر بن الخطاب أنه قال: «من آخر ما نزل آية الربا، وان رسول الله قبض قبل أن يفسرها». دل فحوى الكلام على أنه كان يفسر لهم كل ما أنزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجـه»[4]. ومعنى لم يفسرها لنا رسول الله. أى تفسيرا جامعا للجزئيات في الربا مغنيا عن الاجتهاد فيها وإلا فالتفسير جاء عنه في أكثر من موضع ولعل مراد عمر الاحتياط في الربا ومعاملاته.

أدلة المانعين أن النبي فسر القرآن أو معظمه:

١ - ما أخرجه البزار عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «كان رسول الله - صلى

---

(١) الآية ٢: من سورة يوسف.

(٢) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص ٣٥) ببعض تصرف.

(٣) هو: أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني، إمام أهل السنة، وإليه تنسب الحنابلة. ولد سنة ١٦٤هـ، كان عالما زاهدا تقيا ورعا وقافاً عند حدود الله، أعز الله به الإسلام يوم فتنة القول بخلق القرآن. ألف في مناقبه كتبا خاصة. توفي سنة ٢٤١هـ وعمره (٧٧) سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٨٧)، وشذرات الذهب (٢/ ٩٦).

(٤) الاتقان (٢/ ٢٠٥) واخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ ٣٩.

الله عليه وسلم - لا يفسر شيئا من القرآن برأيه إلا آيا بعدد، علمه أياهن جبريل»[1].

٢ - ما روى عن أبي[2] بكر الصديق أنه قال لما سئل عن الآية (وفاكهة وأبا) - كما سئل عنها عمر أيضا - قال أى سماء تظلني وأى أرض تقلني إذا قلت في كتاب مالا أعلم[3]. ووجه ذلك: أن أبا بكر وهو من أجلاء الصحابة لم يعرف تفسير الآية، ولو كان رسول الله فسر القرآن لما خفيت عليه.

٣ - لو كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان لتخصيص ابن عباس - بالفقه في الدين والعلم بالتأويل - فائدة ما دام يشاركه غيره، ولو كان التفسير مأثورا كله عن النبي لقال لابن عباس: اللهم فقهه في الدين وحفظه التأويل.

٤ - ما روى عن الشعبي[4] أنه قال: «أدركتهم - يعني الصحابة - وما شيء أبغض إليهم أن يسألوا عنه ولا هم له أهيب من القرآن»[5].
ووجه ذلك: أنه لو كان الرسول بين لهم تفسير القرآن لنقلوا ما قاله، ولما تهيبوا منه.

٥ - ومن العقل أن تفسير القرآن كله متعذر، إلا في آيات قلائل فالعلم بالمراد

(١) مقدمتان في علوم القرآن (ص ١٨٦)، وانظر: مجمع الزوائد (٦/٣٠٣).

(٢) هو: أبو بكر بن عبدالرحمن بن أبي قحافة، خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وأفضل الأمة، وأحد المبشرين بالجنة، وهو أشهر من أن يعرف، توفي سنة ١٣هـ وعمره ٦٣هـ - وكتب في سيرته مؤلفات خاصة.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/٤)، وشذرات الذهب (١/٢٤).

(٣) انظر: مقدمتان في علوم القرآن (ص١٨٨).

(٤) هو: عامر بن شراحيل الشعبي، أحد أعيان التابعين. قال عنه مكحول: ما رأيت أفقه منه. كان نحيفا ضئيلا، وأمه من سبي جلولا، يعد من أذكياء العرب، اشتهر بقوة الحافظة، وتوفي سنة ١٠٤هـ وعمره ٨٨ سنة.
انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢٩٤)، وشذرات الذهب (١/١٢٦).

(٥) انظر: مقدمتان في علوم القرآن (ص ١٨٨).

يستنبط بامارات ودلائل. والحكمة فيه: أن الله ـ تعالى ـ أراد أن يتفكر عباده في كتابه، فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته»[1].

منشأ الخلاف بين الطرفين:

بتتبع الآيات الدالة على وجوب بيان الرسول للقرآن بوصفه مبينا ومبلغا عن ربه، كقوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ... ﴾[2].

وقوله:

﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ... ﴾[3].

وقوله:

﴿... فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[4].

إلى غير ذلك من الآيات.

أقول: بتتبع هذه الآيات وأمثالها، يتبين لنا أمران:

١ ـ الاختلاف في الأخذ بظاهر الآيات أو بفحواها ومفهومها. فمن قال ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بين وفسر جميع معاني القرآن إنما نظر إلى ظاهر الآيات ومنطوقها فحسب. ومن قال ان الرسول لم يبين منه إلا القليل، مما دعت الحاجة إليه تمسك بمفهومها، ولم ينظر إلى ظاهر اللفظ.

٢ ـ اختلافهم في معنى التشابه المراد بآية آل عمران:

(١) انظر: الاتقان (٢/١٧٤).

(٢) الآية ٦٤: من سورة النحل.

(٣) الآية ٤٤: من سورة النحل.

(٤) الآية ١٢: من سورة التغابن.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ ... ﴾[1].

مع أنهم متفقون على أن التشابه لا يقع في القواعد الكلية للدين، وإنما يقع في الفروع الجزئية[2].

مناقشات أدلة الطرفين

مناقشة أدلة الطرف الأول القائلين أن الرسول فسر جميع القرآن :

استدلالهم بظاهر آيه:

﴿ ... لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾[3].

ليس بمسلم لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفته مبلغا ومبينا عن ربه، قد بين للناس ما احتاجوا إليه مما وقع بينهم فيه خلاف دون ما لم يقع. أو كان مظنة لوقوع الخلاف وهذا منطوق قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ... الآية ﴾[4].

أما دليلهم الثاني : وهو أن الصحابة كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يجاوزها، حتى يتعلموا ما فيها». فهذا إستدلال لا ينتج المدعى فيه؛ لأن غاية ما يفيده أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، وهو أعم من أن يفهموه من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو من غيره من إخوانهم الصحابة، أو من تلقاء أنفسهم بالنظر والاجتهاد»[5].

---

(١) الآية ٧: من سورة آل عمران.

(٢) انظر: الموافقات (٩٦/٣) فما بعدها.

(٣) الآية ٤٤: من سورة النحل.

(٤) الآية ٦٤: من سورة النحل.

(٥) انظر: التفسير والمفسرون (٥٢/١).

أما دليلهم الثالث : وهو تمسكهم بمنطوق الآيات الدالة على البيان من الرسول وأن المنطوق يقدم على المفهوم عند التعارض. فجوابه: أنه لا تعارض بين المنطوق والمفهوم، علاوة على أنه لابد من ضم آيات القرآن بعضها مع بعض، ليظهر الحكم ويزول اللبس المتوهم.

وأيضا: ان الآيات التى ظاهرها حصر البشارة والنذارة والبلاغ في الرسول: الحصر فيها حصر إضافي لا حقيقي، أريد به تذكير النبي بأنه لا يهدى من أحب، وأنه ليس من وظيفته حمل الناس على الإيمان بالقهر والقوة.

أما دليلهم الرابع : فلا يلزم منه أن يكون الصحابة رجعوا إلى الرسول في كل آية من فاتحته إلى خاتمته؛ بل رجعوا إليه فيما أشكل عليهم فاستشرحوه منه، كما لا يمنع أنهم استشرحوه من غيره كبعضهم من بعض[1].

أما كون النزاع[2] بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا، فلا يلزم من ذلك أن الرسول قد بينه لهم كله، ولكن ذلك يرجع إلى قوة إيمانهم وسلامة فطرتهم وفهمهم لكليات الدين ومفاهيم القرآن الأساسية.

دليلهم الأخير[3] : وهو وفاة الرسول ولم يبين لهم آية الربا؛ لا يدل هذا على أنه كان يبين لهم كل معاني القرآن، فلعل هذه الآية مما أشكل على بعض الصحابة كشأن غيرها من مشكلات القرآن، وتوفى قبل أن يتمكن من أشكلت عليه سؤاله عنها.

مناقشة أدلة القول الثاني :

استدلالهم بحديث عائشة[4] استدلال مردود، فهو حديث ضعيف[5] لا يحتج به؛

(١)، (٢)، (٣) انظر: التفسير والمفسرون (١/٥٢) ببعض التصرف.

(٤) هى: أم المؤمنين عائشة بنت، أبي بكر الصديق. ولدت بعد البعثة بأربع سنين، تزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهى بنت ست سنين، ودخل بها وهى بنت تسع سنين. نزلت براءتها من السماء في حادثة الافك، وقد تزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهى بكر، وهي أفقه أمهات المؤمنين وأكثرهن رواية وحفظا، توفيت سنة ٥٧هـ.

انظر: الاصابة (٤/ ١٣٥٩)، وشذرات الذهب (١/ ٦١).

(٥) انظر: مقدمة تفسير ابن كثير (١/ ٦).

لأنه من رواية «جعفر بن محمد الزبيرى» وهو مطعون فيه. قال البخارى: لا يتابع في حديثه. وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى: منكر الحديث. وقال ابن جرير: أنه ممن لا يعرف في أهل الآثار.

وعلى فرض صحته فهو محمول - كما يقول أبو حيان - على مغيبات القرآن وتفسير مجمله ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بالتوقيف»[1].

أما دليلهم الثاني: وهو ما روى عن بعض الصحابة من التوقف عن تفسير بعض ألفاظ القرآن - كما حصل من أبي بكر - وعمر - فالجواب عنه من وجوه[2]:

الأول: أن أبا بكر وعمر رأيا في ذلك المقام عدم الجواب احتياطا، حتى لا يتجرأ الناس على الحديث في القرآن، فيؤدى ذلك إلى القول فيه بغير علم.

الثاني: يحتمل أنهما إنما قالا ذلك في أول وهلة، ولم يحضرهما معنى ما سألاه عنه في حينه.

الثالث: ولعله الأصوب - إن شاء الله - أنه عظم عليهما القرآن، وجل في أعينهما وهابا أن يتكلما فيه لغير موضع الحاجة التى لابد منها. وخافا لو بدل أحدهما لفظة بأخرى، الا تقع موقعها من إبلاغ الوصف إلى سامعه.

أما دليلهم الرابع: وهو ما روى عن الشعبي من تهيبهم من القول في القرآن.

فالجواب: ان ذلك بمنزلة من امتنع عن الرواية من الحديث والإكثار منه مخافة الوقوع في الكذب المتوعد عليه في النار في حديث رسول الله، فلم يكن امتناع من امتنع أو قلل من الرواية عنه - صلى الله عليه وسلم - من تفسير القرآن - على سبيل الإنكار لمن روى أو أكثر، ولكن ذلك كان منهم على سبيل التعظيم واغتنام السلامة، إذا وجدوا من كفاهم ذلك من غيرهم»[3].

---

(١) انظر: مقدمة تفسير البحر المحيط (١/ ١٣).

(٢) مقدمتان في علوم القرآن (ص ١٨٦).

(٣) المصدر السابق (ص ١٨٩).

أما دليلهم الأخير: فلا يدل على ندرة ما جاء ونقل عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التفسير، بل جاء عنه تفسير آيات كثيرة قد حفظتها كتب السنة في أبواب التفسير من كل كتاب منها.

وغاية ما يدل عليه دليلهم هذا: أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يفسر لهم القرآن من أوله إلى آخره، وبكل جزئياته.

أما تعذر تفسير القرآن بآيات قليلة منه، فهو تحكم بالعقل لا يسلم لهم ذلك.

أما قولهم «إن الله لم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد في جميع الآيات ليتفكر عباده في كتابه». فهذا ـ أيضا ـ تحكم عقلي غير مسلم؛ فلو فرض أن القرآن أشكل كله أو معظمه على الصحابة لكان رسول الله ملزما ببيانه كله»[1]. وذلك بمقتضى قوله تعالى:

﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾[2].

وقوله:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ... الآية﴾[3].

الترجيح بين الأدلـــة:

إذا أمعنا النظر في أدلة الطرفين، وجدنا منشأ الخلاف بينهم يعود إلى إدراك معنى المتشابه منه، ما المراد به؟ وهل بينه رسول الله أم لا؟ مع تسليمهم كلهم بأن التشابه لا يقع في قواعد الشريعة الكلية، كما أن بعضهم قصر نظره إلى ظاهر آيات البيان والتبليغ، ولم يعرج على مفهومها. ومنهم من نظر المنطوق والمفهوم معا.

(١) انظر: التفسير والمفسرون (١/٥٣).
(٢) الآية ٤٤: من سورة النحل.
(٣) الآية ٦٤: من سورة النحل.

وبالتالي نجد أن أدلة الطرف الثاني - القائلين بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يبين من القرآن إلا ما دعت الحاجة إليه وهو قليل - أقرب إلى الحق وأظهر للصواب.

يؤيد هذا: قول ابن عباس - رضي الله عنه - التفسير على أربعة أقسام: قسم تعرفه العرب من كلامها، وقسم لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فهو كاذب، وقسم لا يعذر أحد بجهله، وقسم لا يعلمه إلا العلماء خاصة»[1].

فرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يبين من الأقسام ما كان معروفا من كلام العرب كالعصا، والحية، والكلب، والكهف، ولم يبين ما كان من الأمور الفطرية البديهية، كقوله:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

وتبيان ما كان معروفا أو مفهوما بالبديهة إنما هو تحصيل حاصل ولغو وتكرار في القول يترفع عنه أسلوب البليغ، فضلا عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما أنه لم يبين لهم المغيبات، وحقائق يوم القيامة، مما لا يعلمه إلا الله؛ إذ محاولة تفسيره للمغيبات وحقائق اليوم الآخر فيما لم يظهره الله عليه، إدعاء على الله بغير علم، وحاشا رسوله - صلى الله عليه وسلم - من ذلك:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾[3].

فلم يبق من أوجه التفسير والبيان للقرآن إلا وجه واحد، وهو ما تعرفه العلماء مما امتازوا به على العامة والسفهاء. وما اختلف السلف في فهم تفسير القرآن وعندهم

---

(١) انظر: البرهان للزركشي (٢/ ١٦٤).

(٢) الآية ١٨: من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٤٤: من سورة الحاقة.

نص فيه، ولو كان ذلك لنقل إلينا، إذ لا اجتهاد مع وجود النص. ولعل عدم تفسير القـرآن من قبل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه مصلحة عظيمة، ودلالة على إعجاز القرآن، ونبوة محمد فيما بلغه عن ربه.

وفي هذا يقول مصطفى[1] صادق الرافعي: «قد ثبت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبض ولم يفسر من القـرآن إلا قليلا جدا، وهـذا وحده يجعل كل منصف يقول: ان محمداً رسول؛ إذ لو كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسر للعرب ما يحتمله زمنهم وتطبيقـه أفهـامهم لجمـد القـرآن جموداً تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها، فإن كلام الرسول نص قاطع، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية.

فتأمل حكمة ذلك السكوت: فهي إعجاز لا يكابر فيه إلا من قلع مخه من رأسه»[2].

* * * *

(١) هو: مصـطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد الرافعي، أديب كاتب، شاعر ولد في طرابلس الشام، سنة ١٢٩٨هـ. له مناظرات مع العقاد وطه حسين. يمتاز أسلوبه بالجزالة والقوة، ويعتبر بحق من أبرز أدباء العصر الحديث.

له مؤلفات كثيرة، منها: وحي القلم، وتاريخ آداب العرب، واعجاز القرآن. وفقد بصره في آخر حياته. توفي بمصر سنة ١٣٥٦هـ.

انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٢٣٥).

(٢) انظر: اعجاز القرآن هامش (ص ١١).

ثبت المصـادر والمراجـع

١ - **الإتقان في علوم القرآن:**
لجلال الدين السيوطي. الناشر: مصطفي الحلبي، مصر، طـ: الثالثة.

٢ - **أسـد الغابـة:**
لعز الدين بن الأثير الجزرى. دار الفكر، بيروت.

٣ - **الأسنوى على منهاج الوصول:**
لجمال الدين الأسنوى، مطبعة محمد علي صبيح، الأزهر.

٤ - **الإصابة في تمييز الصحابة:**
لأحمد بن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت.

٥ - **إعجاز القرآن:**
مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٦ - **الإعـــلام:**
لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت.

٧ - **الالمـــام:**
لابن دقيق العيد، دار الثقافة الإسلامية/ الرياض.

٨ - **البرهـــان:**
لبدر الدين الزركشي. دار احياء الكتب العربية، ط: الثانية.

٩ - **تاريخ بغداد:**
لأبي بكر الخطيب البغدادى. دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠- **تاريخ الخميس:**
لحسين بن محمد البكرى. مؤسسة شعبان، بيروت.

١١- **تذكرة الحفاظ:**
للإمام الذهبي. دار احياء التراث العربي، بيروت.

١٢- **تفسير ابن كثير:**
للحافظ ابن كثير الدمشقي. عيسى البابي الحلبي، وشركاه.

١٣- **تفسير البحر المحيط:**
لأبي حيان الأندلسي، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

١٤- **التفسير والمفسرون:**
لمحمد حسين الذهبي. دار الكتب الحديثة، بمصر.

١٥- **تقريب التقريب:**
لأحمد بن حجر العسقلاني ـ طـ/ المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

١٦- **تهذيب التهذيب:**
لأحمد بن حجر العسقلاني. دار المعارف الهندية. ط: الأولى.

١٧- **الجامع الصحيح:**
للإمام الترمذي. المكتبة الإسلامية، بيروت.

١٨- **دراسات في التفسير:**
د. مصطفى زيد. دار الفكر العربي.

١٩- **الرسـالة:**
للإمام الشافعي، تحقيق: شاكر. نشر: مصطفى الحلبي، بمصر.

٢٠ ـ **سنن الدارمي:**
للإمام الدارمي. دار إحياء السنة النبوية، بيروت.

٢١ـ **سنن النسائي:**
للإمام النسائي بشرح السيوطي والسندي. المكتبة التجارية بمصر.

٢٢ـ **سير أعلام النبلاء:**
لإمام الذهبي ـ مؤسسة الرسة ـ بيروت.

٢٣ـ **السيرة لابن هشام:**
تحقيق مصطفى السقا وزميلاه ط/ مصطفى الحلبي وأولاده.

٢٤ـ **شذرات الذهب:**
لابن العماد الحنبلي ـ دار السيرة/ بيروت.

٢٥ـ **شرح الأسنوى على منهاج الأصول:**
لجمال الدين الأسنوي ـ ط محمد على صبيح وأولاده بمصر.

٢٦ـ **الطبقات الكبرى للشافعية:**
تاج الدين السبكي ـ دار المعرفة/ بيروت.

٢٧ـ **فتح البارى:**
لأحمد بن حجر العسقلاني. المطبعة السلفية.

٢٨ـ **فوات الوفيات:**
لمحمد بن شاكر. تحقيق: احسان عباس. دار صادر، بيروت.

٢٩ـ **مجمع الزوائد:**
للحافظ الهيثمي. دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٠- **معجم المؤلفين:**
لعمر رضا كحاله ـ مكتبة المثني / بيروت.

٣١- **مقدمة في أصول التفسير:**
للإمام أحمد بن تيمية. دار القرآن الكريم، بيروت.

٣٢- **مقدمتان في علوم القرآن:**
تحقيق: المستشرق/ آرثر جفرى ـ مكتبة الخانجي. بمصر.

٣٣- **اللؤلؤ والمرجان:**
جمع: عبدالباقي. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت.

٣٤- **الموافقـــات:**
أبو اسحاق الشاطبي. المكتبة التجارية، بمصر.

٣٥- **الموطـــأ:**
الإمام مالك بن أنس. ترتيب عبدالباقي. وعيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٦- **النووي على مسلم:**
محيي الدين النووي. المطبعة المصرية ومكتبتها.